جامعة المولى إسماعيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس

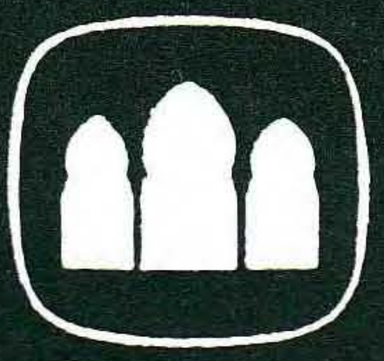

اللسانيات واللغة العربية
بين النظرية والتطبيق

4
سلسلة الندوات

1992

جامعة المولى إسماعيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس

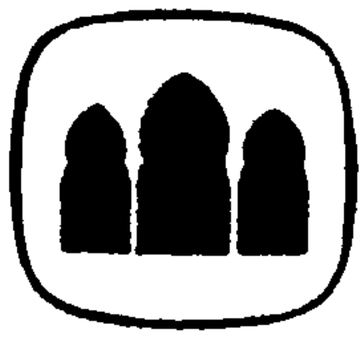

اللسانيات العربية
بين النظرية والتطبيق

سلسلة الندوات
4

المجاز : مقاربة دلالية تركيبية

عبد العزيز العماري
كلية الآداب - بمكناس

ملخص :

في هذا العرض سأحاول أن أبرز أن دراسة المجاز مازالت في بدايتها بالرغم من تراكم معلومات عنه . وسوف نرى أن التعريفات والتقسيمات المتعلقة بالمجاز قابلة للمراجعة وأن التراث البياني العربي يتوفر على إشارات مهمة ولكنها متفرقة في مختلف كتب البلاغة العربية ، وأن بعض الدراسات اللسانية الحديثة تلتقي مع مضامين هذه الإشارات التراثية . وهنا لابد من الإشارة إلى أنه لا توجد ، حسب علمي ، ولحد اليوم ، نظرية لسانية حديثة تختص بدراسة المجاز ، بل إن بعض النظريات اللسانية صرحت بعجزها عن دراسة المجاز (النحو التوليدي ، مثلا ،) . وعلى هذا الأساس فإن مقاربتنا هنا للمجاز ستستفيد من كل دراسة تستطيع أن تقدم البحث في مجال المجاز ، سواء كانت هذه الدراسة قديمة أو حديثة . وستكون هذه المقاربة دلالية تركيبية باعتبار أنه لايوجد مجاز خارج إطار تركيبي ولا يوجد إطار تركيبي بدون مضمون دلالي .

ا - عند مايريد البلاغيون تعريف المجاز فإنهم يجدون أنفسهم مجبرين على تعريفه عن طريق تعريف الحقيقة . وقد صار من المسلمات عندهم أن لكل حقيقة مجازا . يقول الجرجاني : « ...المجاز في مقابلة الحقيقة » (ا) . غير أن هذه المسألة تحتاج إلى نقاش ، فعلى المستوى النظري يمكن أن نقبل هذه الفرضية ، لكن

على مستوى الواقع اللغوي ليس ضروريا أن نعثر لكل مجاز على مايقابله من حقيقة .

يرفض Searle الفرضية التي توجب أن يكون لكل مجاز حقيقة ، يقول : « ليس صحيحا أنه ينبغي لكل استعمال استعاري أن يكون مرهونا بورود حرفي للعبارات الأخرى » (2) .

2 - لكن ما الحقيقة وما المجاز ؟ يقول الجرجاني :« كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع ... فهي حقيقة (3) .ويقول :« ... كل كلمة أريد بها غير ما وضعت له في وضع واضعها ، لملاحظة بين الثاني والأول ، فهو مجاز» (4) . ويقول السكاكي : « (الحقيقة) هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع ، كاستعمال الأسد في الهيكل المخصوص (...) . وأما المجاز فهو الكلمة المستعملة في غير ماهي موضوعة له بالتحقيق ... » (5) . ويتبنى القزويني التعريف نفسه (6) .

3 - لن نلتفت إلى هذه التعريفات التي تعزو المجاز إلى الكلمة . مايهمنا هو وعي البيانيين بضرورة عزو المجازية إلى الجملة . يقول الجرجاني : « لامجاز في دلالة اللفظ ، وإنما المجاز في أمر خارج عنه » (7) . يمكن أن نفهم من قوله : « في أمر خارج عنه » أنه بقصد الإسناد أو ائتلاف عناصر الجملة . ويقول أيضا : « وحده (= حد المجاز) أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التاويل فهي مجاز ...» (8) .

وترى I.T. Mecz: أن المجاز ليس موجودا في الوحدات المعجمية ولا في الإطارات التركيبية . إنه نتاج الترابط بين المكونات المعجمية والنحوية (9) . وترى أن المعنى المجازي ليس دلالة منحرفة ملازمة لكلمة ، في استعمال خطابي ، ولكنه دلالة علائقية تتولد عن عمليات تلفظية منتظمة ، نجد أثرها في المستوى التركيبي والمرجعي الملفوظ (10) . وتنقل هذه الباحثة عن Du Marsais قوله : « لاتكسب الكلمات معناها الاستعاري (= المجازي) إلا عن طريق ائتلاف جديد فيما بينها » (10) . ويرى Searle أن أبسط شكل يمكن التعبير بواسطته عن المجاز هو الشكل المكون من مسند إليه ومسند (11) .

نفهم من هذه النصوص أن المجاز لايتم إلا داخل إسناد أو ائتلاف . وعلى هذا الأساس نقترح أن يكون تعريف الحقيقة والمجاز على الشكل التالي : « كل ملفوظ (= Enoncé) أريد به ماوضع له في وضع واضع

فهو حقيقة ، وكل ملفوظ أريد به غيرما وضع له في وضع واضعه ، لملاحظة بين الثاني والأول ، فهو مجاز » . وقد استعملت مصطلح " ملفوظ " لأنه يشمل الجملة ومافـــوق الجملة .

4 - ويوجد باحثون قدامى ومحدثون ينكرون وجود المجاز. ورد فـي « المزهر » مايلـي : « لامجاز في لغة العرب بحجة أن العرب نطقت بالحقيقة والمجاز على وجه واحد ، فجعل هذا حقيقة وهذا مجازا ضـــرب من التحكم » (12) . ويرى لطفي عبد البديع متبنيا رأي «كروتشيه» أنه « إذا كان اللفظ الحقيقي ، في بعض الأحوال غير معبر ... ، فهذا يعني أن المجاز هو نفسه اللفظ الحقيقي الذي ميزوه منه ... » (13) . أما ابن جني فيرى عكس ذلك . يقول : « إن أكثر اللغة ، مع مع تأمله ، مجاز لاحقيقة » (14) .

5 - لقد ذكرنا كل هذه النصوص ، على اختلاف مصادرها وأزمنة صدورها ، لنؤكد مدى صعوبة الحسم في مشكل الحقيقة والمجاز . لكننا تسهيلا لمهمة البحث ، نفترض أن التمييز النظري بين الحقيقة والمجاز موجود وأن وسائل تحديد المجالين مختلفة .

6 - يبقى مشكل تحديد أنواع المجاز مطروحا ، فالبلاغيون العرب يقسمون المجاز إلى مجاز استعارة ومجاز مرسل . يقول القزويني : « والمجاز ضربان : مرسل واستعارة ، لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له ، فهو استعارة ، وإلا فهو مرسل»(15) . حاصل ما في الأمر أن المجاز إذا قبل أن يخضع لعلاقة التشبيه فهو استعارة ، وإذا لم يقبل ذلك فهو مجاز مرسل .

7 - لكن السؤال المطروح هو : هل يسهل دائما إرجاع الاستعارة إلى تشبيه مناسب ؟ تكون محاولة الإرجاع ، في بعض الحالات ، عملية تعسفية . تنبع صعوبة هذه العملية من كون الاستعارة عبارة عن ائتلاف عناصر معينة ائتلافا خاصا ومن كون التشبيه يقتضي إحضار عناصر التشبيه ، ولايتصور كيف يمكن إقحام هذه العناصر في بناء مكتمل مؤتلف ، فإذا كان من السهل أن نخضع استعارة من نوع :

- رأيت أسدا

لهذه العملية ، حيث نحصل ، مثلا ، على التشبيه التالي :

- رأيت رجلا كالأسد في الشجاعة

فإنه يصعب إجراء عملية مماثلة على الجملة التالية :
- نزعت من تفكيره أن يكون زيد خائنا

6 - ويعتبر المحوران الاستبدالي والمركبي من أهم الوسائل التي تستعمل في تحديد المجاز . إذا اعتمدنا على المحور الاستبدالي فإن الجملة التالية :

-غرست في قلب زيد أنك ظريف

تعامل كالتالي :

- المعنى المجازي : غرست في قلب زيد أنك ظريف
- المعنى الحقيقي : غرست في البستان أشجارا

نلاحظ أن المقطع : « في قلب زيد » يستبدل بالمقطع : « في البستان » ، وأن المقطع « أنك ظريف » يستبدل بالمقطع : « في البستان » . أما المقطع : « غرست » فلم يتغير ، لأنه عنصر قيادة ، فكأننا بهذا الإجراء نوضح أن « قلب زيد » يشبه مكان الغرس ، وهو البستان » ، وأن « أنك ظريف » يشبه شيئا يغرس وهو « أشجارا» .

لكن هذا الرائز التركيبي لا يستطيع أن يحل كل المشاكل ، فبواسطته يصعب تصور معنى حقيقي واضح للمعنى المجازي في الجملة التالية :

- قطعنا على أنفسنا أن نقرضك مالا

لنتأمل العملية التالية :

- المعنى المجازي : قطعنا على أنفسنا أن نقرضك مالا.
- المعنى الحقيقي : قطعنا على الخشبة اللحم .

نلاحظ أن المعنى الحقيقي المفترض هنا لا يصلح أن يكون أصلا للمعنى المجازي المستعمل . وإذا اعتمدنا على المحور المركبي ، فإننا سنصل الى شكل من النوع التالي :

غرست في قلب زيد أنك ظريف كما غرست في البستان أشجارا .

لاقيمة لهذه العملية إلا في كونها رائزا قد يستعمله الباحث للتاكد من وجود علاقة تشبيه أو من عدم وجودها .

7 - نلاحظ أن المحور المركبي أهم من المحور الاستبدالي في تحديد المجاز ، وذلك لأن المحور الأخير لاقيمة له إلا بعد أن يكون قد تم الائتلاف بين العناصر . وقد كان للجرجاني إحساس بذلك ، فقد توصل الى أنه لايمكن تفتيت الجملة المجازية . يقول عن المثال العربي المشهور:« الآن

أخذ القوس باريها » :لا يجوز أن يقول : القوس مستعار للخلافة ، على حد استعارة النور والشمس ، لأجل أنه لا يتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد ، وأن يقال : هي قوس ، كما يقال : هي نور ، وإنما الشبه مؤلف بحال الخلافة مع القائم بها ومن حال القوس مع الذي براها » (16) . هو هنا يؤكد على ضرورة اعتبار المجاز نتاج ائتلاف عناصر الجملة المجازية ، فالمجاز في الجملة التالية :

- محوت من ذاكرة زيد أن تكون فعلت ذلك

نابع من ائتلاف العناصر المكونة لها .

8 - يبقى أن نتحدث عن جهات المجاز . عندما يقول الجرجاني : « ومما تجب مراعاته أن الفعل يكون استعارة مرة من جهة فاعله الذي رفع به .... ويكون استعارة من جهة مفعوله ... » (17) ، فانه يعترف بأن جهات المجاز لا تتم إلا بين الفعل وفاعله أو بين الفعل ومفعوله ، وعندما يعزو الاستعارة (= المجاز) الى الفعل ، فإنه يقصد الجملة التي يقودها هذا الفعل ، باعتباره العنصر الأساسي الذي تعتمد عليه سائر العناصر المكونة للجملة .

وقد لاحظت I.T.Mecz من جهتها أنه : « عندما يتعلق الأمر بمحور فعلي (Pivot verbal) ، فإن الفعل يدخل في علاقة مجازية مع فاعله من جهة ، ومع أحد مفاعيله من جهة أخرى ...»(18) .

من الناحية النظرية يمكن أن نتصور جهات المجاز المحتملة كالتالي :

- فعل ، فاعل
- فعل ، مفعول 1
- فعل ، فاعل ، مفعول 1
- فعل ، مفعول 2
- فعل ، فاعل ، مفعول 1 ، مفعول 2

نلاحظ أن الفعل دائم الوجود وأن المجاز لايتم في استقلال عنه ، كما نلاحظ أن هذه الإمكانات نظرية ومجردة ، وبالتالي فإن تطبيقها على مستوى لغوي واقعي هو الذي يقرر الجهات المجازية المستعملة .

لنتأمل المثالين التاليين :

1 - رسم زيد في خيال عمر أن الأمر سهل

2 - رسمت الظروف في خيال زيد أن المغامرة ضرورية

لاتوجد علاقة مجازية بين الفعل وفاعله في الجملة الأولى ، حيث إن إسناد الفعل إلى فاعله لايعبر عن معنى مجازي . لكن ائتلاف الفعل المحور بالمفعول الثاني وبالمفعول الأول ينتج مجازا ، حيث إن الحقيقة

تقتضي أن يرسم شيء محسوس يمكن رسمه في مكان قابل لذلك . وفي هذه الجملة نلاحظ ان المرسوم (=المفعول الأول) ، عبارة عن فكرة وأن المرسوم فيه (= المفعول الثاني) . هو الخيال . هنا يتضح أن المجاز تحقق من ائتلاف الفعل بمفعوله الأول ومفعوله الثاني .

وفي الجملة الثانية نلاحظ وجود علاقة مجازية بين الفعل وفاعله وبين الفعل ومفعوله الأول وبين الفعل ومفعوله الثاني ، حيث أسند الرسم إلى " الظروف " ووقع الرسم في " خيال زيد " وجاء المرسوم على شكل فكرة (المغامرة ضرورية) ، فكانت بذلك هذه الجملة مجازية من ثلاث جهات .

نستنتج ، بعد هذا العرض الموجز ، مايلي :
- لايمكن البحث عن المجاز خارج الجملة أو الملفوظ .
- لابد من تضافر المعايير الدلالية والتركيبية لدراسة المجاز.

الهوامش :

1 - الجرجاني - أسرار البلاغة - ص 153.
2 - J.Searle - sens et expression - p : 137 - 138
3 - الجرجاني - أسرار البلاغة - ص 396 .
4 - نفسه - ص 398 .
5 - السكاكي - مفتاح العلوم - ص 152 - 153 .
6 - القزويني - الإيضاح - ص 151 - 153 .
7 - أسرار البلاغة - ص 456 .
8 - نفسه - ص 430 .
9 - Irène Tamba Mecz - le sens figuré - p: 31
10 - نفسه - ص 188 .
11 - J. Searle - sens et expression - p : 129
12 - السيوطي - المزهر - ج 1 364 - 365 .
13 - التركيب اللغوي للأدب - ص 86 - 87 .
14 - الخصائص - ج2 - ص 447 .
15 - الإيضاح - ص 154 .
16 - أسرار البلاغة - ص 293 .
17 - نفسه - ص 61 .

18 - نفسه - ص 107 :p - Sens figuré -

المصادروالمراجـع

1_=العربيـــة

- ابن جنى ، أبو الفتح عثمان - الخصائص - تحقيق : محمد علي النجار - دار الهدى للطباعة وللنشر - بيروت ط 2 .

-الجرجاني ، عبد القاهر - أسرار البلاغة - تعليق أحمد مصطفى المراغي - مطبعة الاستقامة - القاهرة .

- السكاكي ، أبو يعقوب - مفتاح العلوم - دار الكتب العلمية بيروت .

- السيوطي ، جلال الدين - المزهر في علوم اللغة وأنواعها - شرح وتعليق : أحمد جاد المولى والمجموعة - دار الفكر - بيروت .

- القزويني ، الخطيب - الايضاح في علوم البلاغة - دارالجيل- بيروت .

- لطفي عبد البديع - التركيب اللغوي للأدب - مكتبة النهضة المصرية - ط1 - 1970 .

2_=الأجنبية

- Irène Tamba Mecz - Le sens figuré - Puf - Linguistique nouvelle.

- J. Searle - Sens et expression - Minuit - 1982.